١٣ - دين شرقي:

إن تأثير الشرق تجلى بالخصوص في الدين الذي جاء به المعمرون الفينيقيون. فقد أخذت قرطاج عن صور آلهتها وكانت تخشاها أكثر مما تحبها. إلا أنه يجب ألا ننسى - كما يفعل البعض أحيانا- أن غايات العقيدة ومظاهرها تخضع لمؤثرات المكان والزمان معا. فعندما انقلبت الديانة الفينيقية إلى افريقية طرأت عليها تغيرات حتمية ولم تبق الديانة القرطاجية، منذ أن اكتملت، هي حتى انهيار قرطاج ومن ذلك أن معنى الثلاثية الذي يكشف عنه "قسم حنبعل المشهور" في صيغته التي وصلتنا) بوليب ٧،٩،٣،٢ (وليس إلا كسبا حديثا للهيكل البونيقي على ما يظهر.

لقد كان القرطاجيون يعبدون آلهة متعددة كما كان الشأن بالنسبة لمجموع الأمم القديمة. فملقرط "ملك المدينة " الذي شبه بهرقليس كانت له مكانته في قرطاج، وكذلك بقية المراكز التي أسستها صور، وأشمون أو أدونيس الذي شبه بأسكلبيوس شيد له معبد على هضبة المدينة كما هو الشأن بالنسبة لملقرط إله التجديد. وتفيدنا النقوش أن "عشتروت" و"بعل حداد" و"رشف" وآلهة أخرى كانت لها من يعبدها أيضا.

ولكن الإله الكبير لقرطاج كان بعل حمون بلا منازع وقد شبه ب"كرونوس" أو (" "زوسZensوقال "ر.دوسو" عنه: "إنه يمثل اندماج الإله الفينيقي" أل" بإله أهلي. وقد) شبه بعضهم اسمه باسم الإله المصري آمون عن خطإ فيما يظهر. بل يحسن أن نؤول معنى الكلمة على أنه "سيد الأنصاب")حماميم(. وإذا كان هو المشخص على نصب بسوسة فإنه يبدو ملتحيا مرتديا جبة طويلة، على رأسه تاج أسطواني، وبيده رمح وهو جالس على عرش يمثل كلا جانبيه أبا الهول وما من شك في أنه كان على غرار "أل" ذاته، الإله الأعظم، مالك القوى السماوية الأقدر.

وفي كثير من الأحيان لا جميعها نجد على الحجرات النذرية إلى جانب بعل حمون إلاهة مساعدة تسمى تانيت بينيبعل)أي وجه بعل(لا تزال شخصيتها غامضة. وقد يكون مثل بعل حمون نفسه مزيجا من إلاه بربري وإلاه فينيقي. وتقابل في الأصل اللات (" التي عرفت هي نفسها "بعشترتAshératوقامت مقامها في العهد الروماني يونيو)

(Junon(وسيلستيس)Caelelestisاللتان كانتا مندمجتين غالبا. وكان القرطاجيون) يضفون على آلهتهم الصورة البشرية، وتشهد بذلك على الأقل الأنصاب المكتشفة في سوسة شهادة قطعية. ولكنهم ظلوا متأثرين بصورة مشوهة منذ غابر التاريخ، حيث كانت تعتبر الحجارة مأوى الآلهة إن لم تعتبر هي نفسها الآلهة. وبقوا يعبدون الأوثان حسب الطقوس المألوفة وكانوا يدهنونها بالزيت. ونجد في غالب الأحيان كما بين ذلك "سينتاس" الآلهة منقوشة في هذا الشكل على الأنصاب مشوهة، مقتضبة، إلا أنه يمكن للناظر أن يتعرف إلى مظهر الآلهة العتيق سواء كانت على العرش أم لا. وما يسمى خطأ بعلامة تانيت هو أحد الرموز الإلهية الكثيرة مثل القرص والهلال والرمانة وغيرها. وهو عبارة عن مثلث أو شبه منحرف قد علاه خط أفقي معقف الطرفين في بعض الأحيان وأسطوانة منحرفة الشكل أحيانا. وقد تقدم الباحثون بتعليلات عديدة يدل تباينها دلالة واضحة على تهافتها. وقيمتها الرمزية هي وحدها التي لا توضع موضع الشك.

وقد ألقت الحفريات الحديثة بعض الأضواء على المعابد القرطاجية. ونعرف اليوم معرفة تامة على الأقل معبدين: أحدهما في قرطاج والثاني في سوسة. ويوجد معبد قرطاج على شاطئ صلامبو. وكان في أول الأمر بناية متواضعة مسيجة تذكرك بمثالها المعقد (وجدرانها القصيرة، ببعض المعابد الموجودة في راس شمراShamraوعند تأسيس .) قرطاج حافظ هذا المكان على قداسته، وتكدست فوقه طبقات متتالية من الأنصاب والآنية المحتوية على عظام الأطفال المقدمين قرابين للآلهة. أما معبد سوسة الذي نجهل شكله الأول فإننا نجد فيه نفس الطبقات المتتالية من الأنصاب والأجاجين. وأقدمها عثر عليه في مصاطب صغيرة يرجع تاريخها إلى القرن السادس أو السابع ويرجع تاريخ أحدثها إلى القرن الأول أو الثاني بعد المسيح إلا أنه يحسن أن نلاحظ أن هذين المعبدين لا يعطيان صورة قيمة لجميع المعابد القرطاجية. فقد كان بعضها موجودا في أماكن مرتفعة لا على شاطئ البحر كما هو الشأن بالنسبة للمعبدين المذكورين. وليست جميع المعابد أيضا وبالخصوص متكونة من ساحة مسيجة ذات هندسة تتفاوت

بساطة. والنصوص تدل على أن معبد أشمون أو معبد تانيت كانا هيكلين عظيمين فسيحي الأرجاء في بعض الأحيان، وأكبر الظن أنهما ينتسبان إلى أصل هيليني.

وكان الكهنوت منظما تنظيما محكما ومتمتعا بهيبة كبيرة. وكان واجب الكهنة الأول هو إقامة الطقوس الدينية برعاية حكام ينوبون عن الدولة. ولعلهم كانوا يشرفون

يوميا على مراسم دينية لابسين زيا كهنوتيا خاصا بهم، ويستعينون بعدة أعوان يقومون على المعابد. وكان القرطاجيون على غرار شعوب كثيرة يحتفلون بالبغاء المقدس الذي من شأنه أن يضمن في اعتقادهم خصب الأرض والماشية والبشر.

إننا لا نعرف بالضبط كيف كانت تجرى الحفلات الدينية. وجداول القرابين التي عثر عليها في مرسيليا وقرطاج تؤلف قانونا كهنوتيا لا يخلو من شبه كبير بسفر الأحبار اللاويين. ففي كليهما تجد أنواعا ثلاثة من القرابين: فمنها ما يحرق ومنها ما يكون مجرد هدية، ومنها ما يكون كفارة. ونجد تعدادا للضحايا من البقر والغنم والطيور، وتعدادا لهدايا من الزهور والخبز أما جلد الضحية فكان يهدى إلى القس. ولا شك أن الطقوس اليهودية والقرطاجية ترجع إلى أصل واحد هو الأصل الكنعاني.

وكان القرطاجيون يقدمون الضحايا البشرية. فقد ذبح أحد القواد المنتصرين في صقلية ثلاثة آلاف من أعدائه قربانا في المكان الذي قتل فيه جده. وكانوا يقدمون كل سنة على الأقل طفلين ذكرين قربانا. وذلك تحت إشراف الدولة. إلا أن عدد الضحايا كان يبلغ المئات في حالات الفزع، كما كان الأمر عندما أغار عليهم أغاثوكل. إنه كان في وسع العائلات بدون شك أن تقدم جزءا من عجل عوض أطفالها. وغالبا ما كان تفعل ذلك.

ولكن يروى أن المؤمنين الأتقياء كانوا لا يترددون في تقديم أبنائهم على مذبح الآلهة. أما الأغنياء ذوو العقلية الواقعية فقد كانوا يقدمون للآلهة صغار الرقيق أو كانوا يشترون (أبناء الفقراء يستعيضون بهم عن أبنائهم. وإذا صح هذا كما رواه بلوتاركPlutarque) فإنه يلقي أضواء قاتمة على النفسية البونيقية.

وبعل حمون هو الذي كان يبتلع الأطفال في جوفه المتقد نارا. ونحن نعلم كيف استغل الكاتب "فلوبار" هذه الحفلة الدموية وقد عبر عن ذلك بقوله: "وكانت حركة اليدين القلزيتين في تزايد. وأصبح لا سبيل إلى توقفهما، فما تكاد تصل الضحايا على حافة الفتحة حتى تزول كما تتبخر قطرة الماء من على صفيحة محمرة نارا فيتصاعد دخان أبيض في الحمرة القانية".

ورغم ذلك فإن شاهية الإله لا تسكن. إنه يطلب دائما المزيد. فكان القوم يكدسون على يديه الضحايا ويربطونها بسلسة تشدها حرصا منهم على تزويده بأكثر مما يجب.

إن روعة هذا الوصف قد تكون أضرت بالحقيقة التاريخية. فبالرغم عن الشهادات القديمة استنكف العلماء من التسليم بهذه المراسم المريعة.

ولا سبيل اليوم إلى شك في صحتها. فقد اكتشفت حديثا في صلامبو وسوسة ("طفايات" أو توفاتTaphetأي مواضع إحراق الضحايا. وبات من اليقين أن الأجاجين) تحتوي على عظام بشرية محروقة. وتفضي دراسة النقوش إلى نتائج مماثلة لا تقل وضوحا عن الأخرى. ولكنها تمكننا من أن نسجل أيضا أن رغبات بعل حمون أصبحت في الفترات الأخيرة من تاريخ قرطاج دون ما كانت عليه قسوة. فقد حل محل التضحية الفعلية بالطفل البكر غالبا التضحية المعروفة ب"ملكومور" أي أن الحيوان ويكون غالبا خروفا عوض الضحية البشرية. وقبل بعل هذه المعاوضة حسب العبارة المنقوشة في (" الأنصاب الرومانية ب"نڤاوسN’gaousروح بروح ودم بدم وحياة بحياة.)